الإسلام والعقل

يجب على طالب العلم أن يضع موضع الشك كل شيء يحتجزه عقله ويقتنع به ، ليصل للفكرة الصحيحة .

فرنسيس بيكون

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام والعقل

لعل من أشد الادعاءات التي واجهت الإسلام ، وحاولت تشويه صورته ، هو ادعاء أن الدين الإسلامي يدعو إلى تجميد العقل وعدم إرهاقه بالتفكير ، والرضا بالواقع الذي يعيشه المسلمون في كل العصور ، وكأن الإنسان المسلم قد غدا عبداً لقوةٍ خفيةٍ لن يستطيع مقاومتها ، وكأنه قد وضع ضمن مجال معين من الحياة في ظروف اجتماعية واقتصادية معينة ، لن يستطيع تجاوز هذا المجال مهما حاول ، ومهما بذل من جهد .

هذه خلاصة الأفكار التي حاربها مدّعو المعرفة بالدين ، هذه الأفكار التي حاولت وما زالت تحاول هدم الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية ، وكانت السبب في تشييد صروح المجتمع المسلم .

وهنا لن نقف طبعاً إلى جانب أعداء الإسلام ، أعداء الحق ، وبالمقابل لن نتطرف برأينا إلى حد الغلوّ فيه ، فندّعي أن الدين إنما هو دعوة صارخة لاستخدام العقل وإخضاع كل الأمور والأحكام التي تمر في الحياة الدنيا له ، فلن نكون مع هؤلاء ولا مع أولئك .

ولكن ترى هل غرب عن بال أولئك أن الإسلام إنما دعا في يوم من الأيام جميع البشر إلى إعتاق عقولهم من عبودية الخرافات

والخزعبلات ، وإعمالها في أمور الكون والخلق ، والنظر في أرجاء هذه الأرض ، وفي السماء ، وفي كل شيء . . لكي نعتبر فقط من خلال الحوادث الماضية ، ومن خلال الشواهد التي وضعها الله في الكون . . وفي الإنسان نفسه . . فدعا القرآن الكريم كثيراً العباد إلى التفكير ، ومن المعروف أن التفكير لا يأتي إلا من أصحاب العقول . . ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] .

فالسير في الأرض إنما هو الدعوة الصارخة إلى التفكير ، للوصول إلى الحقيقة الصادقة ، الحقيقة الناصعة ، الظاهرة ظهور الشمس عن حقيقة الخلق والوجود . . والنظر في ملكوت السموات والأرض يحمل الدعوة نفسها ، والمعنى الأعم والأشمل . . ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

وشمولية الدعوة للتفكر هنا لا شك واضحة في قوله تعالى : من شيء . . فكل ما هو موجود واجب التفكر والنظر فيه ؛ للوصول إلى الحق .

والدعوة إلى البحث والتفكر في بداية الخلق ما زالت قائمة وموجهة إلى جميع الراغبين في البحث ، إلى جميع العادلين في بحثهم ، الذين يبغون الوصول إلى الهدف الأسمى .

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

والسير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة ؛

التي لم تألفها العين ، ولم يملها القلب . وهي لفتة عميقة إلى حقيقة دقيقة . وإن الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه ، فلا يكاد ينتبه إلى شيء من مشاهده أو عجائبه ؛ حتى إذا سافر وتنقل ، وساح ، استيقظ حسُّه وقلبه إلى كل مشهد ، وإلى كل مظهر في الأرض الجديدة ؛ مما كان يمر على مثله ، أو أروع منه في موطنه دون التفات ، ولا انتباه . وربما عاد إلى موطنه بحسٍّ جديد ، وروح حديد ؛ ليبحث ، ويتأمل ، ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته ، وعادت مشاهد موطنه وعجائبها تنطق له بعدما كان غافلاً عن حديثها، أو كانت لا تفصح له بشيء، ولا تناجيه ! ويكون السير في الأرض لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة ، ودعوتها إلى التأمل والتدبر في آثار قدرة الله تعالى .

ويؤكد القرآن الكريم أن الباحث في أجواء الكون ومجاهله ، وفي عالم الإنسان وغوامضه ، هذا الباحث عن الحقيقة لا بد أن يجدها طالما أعمل عقله في البحث بصدق عبر النظر في آيات الآفاق والأنفس . . ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

فهذا الحق لا بد أن يظهر جلياً واضحاً . . ولكن كيف ؟ بالتأكيد ليس بتجميد العقل، ولكن بالتفكير الصحيح، وهذا التفكير لا يستطيعه إلا العقلاء . . !! فأين أولئك الذين يدّعون ويفترون على الله وعلى الإسلام . . ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٤] (١) .

---

(١) « مرية » : شك عظيم .

ولقد أصيب هؤلاء الناس بابتلاء من ربهم ، فأنعم عليهم ولكن جحدوا النعم ، وظنوا أنهم قد وصلوا إلى درجات العُلا والسمو ، ولم يعودوا بحاجة لأحد ، حتى لرب العالمين . فغلقوا عقولهم ، وحاربوا المُنعم . . ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت : ٥١] (١) .

ولكن حتى هؤلاء إذا عركتهم الحياة ، واعترضهم موقف قاسٍ ، وامتحان صعب ، فحرموا من إحدى النعم لتجدنهم يتجهون إلى خالقهم ويتضرعون إليه كي ينقذهم ويخلصهم من ورطتهم . . ونسوا كيف تناسوا ربهم يوم كانوا غارقين في النعيم ؟! ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت : ٥١] (٢) فيفك الله عنه محنته ، فيعود لما كان فيه من البأس والشدة والغرور ، ويعود إلى إنكار المنقذ والمنجي . . ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [فصلت : ٥٠] (٣) .

وقد يتساءل بعضهم : ولكن لماذا لا يخلص الله البشر من هؤلاء المراوغين ، طالما أنهم يكذبون على خالقهم ، وهو أعلم بهم ؟!

إن هذا لا يتم لحكمة إلهية ، لعلها العبرة والتفكر ، فهو يمهل

---

(١) « نأى بجانبه » : تباعد عن الشكر بكليته تكبراً .

(٢) « دعاء عريض » : كثير مستمر .

(٣) « هذا لي » : هذا حقي أستحقه بعملي .

ولا يهمل ، ومن رحمته أن يرسل لهم وللجميع الرسل ، وينظرهم إلى أجل قريب لأن الله ليس بظلاّم للعبيد . . ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣١] فهذا يتناقض مع عدل الله ورحمته لعباده .

ويدعونا الإسلام مجدداً للتفكير ، ولكن هذه المرة في أنفسنا ، في هذه النفس البشرية التي ما زالت لغزاً محيراً للعلماء ، وما زالت الكتب والمجلدات تُسطر في علم النفس وعلوم التشريح ، ولكنها قاصرة ، لم تَفِ النفس حقها .

والتفكر في النفس بشكل صحيح ، ومن كافة الجوانب المادية والمعنوية لهو أبلغ لنا ، وأكثر إثباتاً للإبداع الإلهي ، وأقرب إلى تصديق الدعوة الإلهية للنظر والتفكير . ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [الروم : ٨] .

ويضرب لنا القرآن أمثلة كثيرة ، ويقص علينا من القصص الشيء الكثير ، ويحدثنا عن السموات والأرض ، والليل والنهار ، والأزواج ، والبرق والمطر و ، و . . .

ثم يقر قاعدة . . ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] العالمون : هم من سخّروا العلم لخدمة الإنسانية . . مبتغين وجه الله . . . هم من تفكّروا حقاً .

فالعلماء أمناء على الشريعة ، وحاملو كلمة التوحيد إلى الناس كلهم ، يدعون إلى الله على بصيرة ، وهدى ، وكتاب منير .

وقد أولاهم الإسلام مكانةً لا تُضاهى ؛ إذْ حمَّلهم هذه المسؤولية الجسيمة ، وألقى على عواتقهم نَشْر كلمة الحق ، وبثّها في النفوس . فمن دَأَبَ على الحق كان اللهُ معه ، واحترمه الناس ، وبَجَّلوه ، وفاز بالجنة يوم الحساب .

لذلك قال بعض السلف : إذا مرَّ في القرآن مثل ولم نفهمه بكينا على أنفسنا ؛ لأن الله عز وجل يربط فهم هذه الأمثال بالعلم والعلماء . . فهم بعلمهم يبتعدون عن اللعب والعبث الذي يصر عليه بعض مدّعي العلم والمعرفة . . ويبتعدون عن اعتقاد العبث واللعب في الوجود . . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الدخان : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

وإذاً . . وبعد هذا أين المدّعون . . أين أولئك مدعو الحكمة والمعرفة . . أولم يدرسوا هذه الآيات ، أو لم يتفكروا فيها . . أم مرّوا بها مرور الكرام . . بل اللئام . . فليس ذنبنا أن اتخذوا موقفاً خاطئاً ، وإنما مرده إغماض أعينهم عن النور الحق . . والخطأ فيهم واضح بيّن . . ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

وشتان بين من وصل إلى النور الصحيح ، وإلى اليقين ، وبين من ظل يتخبط في مستنقع غروره وجهله . . ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر : ١٩ ، ٢٠] .

وتتجلى قمة العقلانية والحكمة في هذا الدين في قوله تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف : ٢٩] (١) .

فالحق واضح بيّن ، والتفكير والعقل موجود ، والقرار يعود للإنسان وحده ، لا يكرهه شيء على الاعتقاد في غير ما يؤمن به . فإنه لا إكراه في الدين . . لماذا ؟! لأنه قد تبيّن الرشد من الغيّ . . واتضحت الطرق ، والموقف الآن متروك لك أيها الإنسان . . فبيدك أن تصل وتصيب الهدف . . وبيدك أن تخطئ وتضل ، وعندها لن يرحمك أحد .

فالإسلام إذاً دين دنيا وآخرة ، رغم أنف أعداء الإسلام ، الذين خلطوا الأبيض بالأسود ، وحاولوا جعل الإسلام ترك الدنيا وعدم السعي فيها ، والانقطاع للعبادة ، وخلطوا بين الزهد والفاقة ، وشتان بينهما .

---

(١) « سرادقها » : فُسْطاطها ، أو لهبها ودخانها . « كالمهل » : كدُرْدِيِّ الزيت ، أو كالمذاب من المعادن . « وساءت مرتفقاً » : متكأ ، أو مقراً (النار) .

فالزهد هو أن يترك الإنسان عرض الدنيا وهو قادر عليه ، وأن تكون الدنيا بين يديه فلا ينشغل بلذائذها زهداً فيها . والزهد من عمل القلب .

أما الفاقة فهي الفقر والحاجة ، وبُعد الدنيا عن الإنسان ، فلا سبيل له إلى الزهد اختياراً .

وحاول أعداء الإسلام ، أعداء الحق ، أن يظهروا أن القرآن وأحاديث الرسول تهدف إلى ترك الدنيا والإقبال على الآخرة ، وهدفهم إشاعة الضعف بين المسلمين ، ومهاجمة الإسلام بأنه دين يدعو للتخلف عن الحياة مما لا يتمشى مع طبيعة الأحياء .

وما زالوا في محاولاتهم هذه ، وقد نسوا أنه لو تدبرنا القرآن بآياته وكلماته لوجدنا أن لفظ ـ الدنيا ـ قد تكرر (١١٥) مرة في القرآن ، وهو نفس العدد الذي تكرر به لفظ الآخرة . . ورب قائل أن هذا من قبيل المصادفة ! ولكن هذا لن يؤثر على نور الحق . . على الإسلام .

فالإسلام دعا إلى الدنيا والآخرة ، والجسد والروح ، في لفتة بارعةٍ إلى تربية الشخصية المتوازنة ، التي لا تختل ولا تشطط في سيرها ، بل تلتزم المنهج الرباني المعتدل دون إفراط أو تفريط . وطالب الإنسان بالسعي والعمل في الحياة ، كما طالبه بالزهد فيها منعاً من أن يعتدي على غيره . . فالقرآن ينص على : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ

﴿ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٧٧] .

وجاء في الحديث : «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ؟ ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه»[١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] فقدّم حسنة الدنيا على حسنة الآخرة .

وعندما نوفق بين الدنيا والآخرة ، ترى ماذا سيكون الجزاء . . ؟!

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٨] .

وهكذا آيات كثيرة وأحاديث عديدة تحث المسلمين على أن يعمروا جنة الأرض في الدنيا بعملهم وجنة الآخرة بعباداتهم .

وهكذا كان فهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال :

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

ولذلك فإنه ليس في الإسلام دعوة إلى التخلف عن الحياة ، وليس من الإسلام أن يترك الإنسان الدنيا فلا يجاهد فيها ، أو أن

---

(١) انظره في الحاوي (٢/ ٨٩ ، ١١٠) وكشف الخفاء (٢/ ٢٣٨) .

يتواكل في طلب الرزق أو يتقاعس عن السعي ؛ اعتماداً على ما يصيبه من رزق أو خير يجريه عليه الله عن طريق غيره .

وعمر الفاروق رضي الله عنه أكد هذه الحقيقة عندما دخل المسجد فوجد رجلاً يرفع يديه للسماء ويدعو طالباً للرزق . . فعلاه بالدرة وقال له : «أماتك الله لقد أمتَّ روح الإسلام ، أما علمت أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة» ؟!

فهذا هو الفهم الحق لدعوة الإسلام .

ولا شك أن الرسول ﷺ كان يقصد أن يدلنا على هذا عندما أمسك يد أحد أصحابه وكانت مشققة فقال :

ـ « **إن هذه يد يحبها الله** »[1] .

فجعل العمل موجباً لرضا الله ولنيل محبته . . وفي النهاية نيل الجنة برحمته . . فإذاً الكسل والتواكل و ، و . . . مما حاول خصوم الإسلام إلصاقه بالإسلام إنما هو رد عليهم . . وهذا كتابنا . . وهذه سنة نبينا واضحة بينة لا لبس فيها ولا غموض . . فهذا ما أراد أعداء الإسلام أن ينشروه لعلهم يجدون عند المسلمين أو بعضهم قبولاً ، فيتخلفوا عن العالم والحياة . . وتنقلب قوتهم إلى ضعف ، وعلمهم إلى دجل ، ووحدتهم إلى فرقة .

---

(١) انظره في تاريخ بغداد (٧/ ٣٤٣) واللآلئ المصنوعة ٢/ ٨٥ والموضوعات لابن الجوزي (٢/ ٢٥١) .

وإنما الإسلام هو دين الحياة والعمل ، دين عمل وقوة وسعي وكد وجد ، وليس فيه مكانٌ للكسل والخمول[١] ، حتى في الصيام كان الصحابة والمسلمين يحاربون ويفتحون البلاد وينتصرون . . وليس كما يدعو بعضهم اليوم للإفطار بحجة الدراسة أو التعب أو أو . . . فهذه كلها أوهام ليست من الإسلام في شيء . فالدين قد شرع الإفطار مع العذر . . وليس هذا موضوع بحثنا . . والإسلام لم يترك جانباً من جوانب الدنيا إلا أوصى به وحث على العمل فيه . . فبحث في سبل الحياة كلها ، وحث على المضي في طريق النمو عن طريق المعرفة والتعقل لأمور الحياة .

فلو أردنا أن نقول قول الحق ، بعد كل هذا ، لتوجب القول أن الإسلام ما كان إلا هادياً للعقل ، ومنقذاً له من الخرافات والأوهام . . وكانت نقلة نوعية من عبادة الأحجار والأوثان إلى

---

(١) عقد الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي فصلاً ممتعاً في كتابه (الإيمان والحياة) ، وجعل عنوانه : « الإيمان والإنتاج » . ويكفي أن نقرأ بعض العناوين التي وردت في هذا الفصل ، لندرك أهمية العمل في الإسلام ، وأنه دين الحياة والسعي . ومن تلك العناوين :

- دافع المؤمن إلى العمل دافع ذاتي .
- الفوز في الآخرة بالعمل لا بالأماني .
- العبادات والإنتاج .
- المؤمن يعمر أرض الله بالعمل .
- الإيمان بالآخرة لا يعطل الدنيا .
- التوكل ليس معناه التواكل .

عبادة الله الواحد القهار ، ومن عبادة العباد ، إلى عبادة رب العباد .

فتنبهوا يا إخوتي إلى تلك المؤامرات التي تحاك من وراء الكواليس . . وافتحوا عيونكم وعقولكم بالعلم والمعرفة . . وأثبتوا للعالم أن ديننا هو الحق . . وأنه . . ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

* * *

obeikandl.com